

موجات البحر البيضاء وفي صقيع الجبال وتلوج السهوب وهذا هو مجال البحث عن تلك الأشياء الغامضة في الوجود ، وكيف يفك لغز هذا البياض وسحره . إنه يحاول النفاذ إلى جوهر الأشياء وسر الكون وأنه يقول صراحة - إن ذلك كله يرمز إليه الحوت الأبيض . فالحوت الأبيض حوت واقعي ورمزي في آن واحد ومن هنا يكتسب صراع البطل آخاب معينين ، صراع واقعي مع قوى الطبيعة ، وصراع رمزي مع قوى الشر للبحث عن سر الكون والحياة والمطلق .

أخذ آخاب ، بعد أن ضمن موافقة البحارة على الانتقام من موى ديك ، يدرس الخرائط والسجلات البحرية ليحدد مواقع صيد حوت العنبر . حقا إن البحث عن حوت معين في كل بحار ومحيطات الكرة الأرضية يبدو أمراً شاقاً ، ولكن خبرة آخاب بتحركات حوت العنبر بحثاً عن الطعام في مواسم معينة كانت خير معين له في بحثه الانتقامي الدؤوب . وإنه ليعرف خط سير موى ديك والمواقع التي ظهر عندها في السنوات السابقة في موسم الصيد على خط الاستواء حيث رؤى مراراً وحيث وقعت حادثة التهامه لرجله . وقدر آخاب رحلته إلى تلك الأماكن الاستوائية بسنة كاملة ، قرر أن يمضيها في صيد الحيتان ، بدلا من الركون إلى الشاطئ يقتله الانتظار والتحرق للانتقام ، ولعله يلقى غريمه الحوت الأبيض يتسكع في بحار بعيدة عن مواقع غذائه اليومي . لذا خطط آخاب للوصول إلى هدفه بشغل البحارة طوال سنة الرحيل وحتى الالتقاء بخصمه الأبيض أن يشغلهم بأعمال يومية وصيد مريح يقربهم من غايته الكبرى ويعد عنهم السأم والتراخي في مهمتهم الكبرى . ويصور ملفل عمليات صيد الحيتان كمبارك كبرى في الذكاء وقوة الإرادة في الصراع بين الإنسان وقوى الطبيعة . وهو يرى المسألة كلها في إطار عبثية الحياة الماثلة لعبثية سيزيف ، فالحياة زحمة والكون كله نكتة عملية ضخمة والإنسان ذاته محور هذه النكتة ، ومع ذلك فإنه يستمر في الحياة بالرغم مما يقابله من مصائب وحتى الموت لا يغدو في نظره سوى دعابة . وتثور هذه الرؤية في حمى الحزن وخلال أشد الصراعات فإنه ينظر إلى كل الحزن كدعابات وجزء من نكتة الكون . وهذا ما يحدث في أخطار رحلة صيد الحيتان إذ تكتمل النكتة الشاملة ، ومن هنا فهو ينظر إلى رحلة الباقوطة ويتأمل غايتها الكبرى في صيد الحوت الأبيض « موى ديك » كجزء من نكتة ودعابة الكون .

ويحرص ملفل على ذكر العادات البحرية عندما تلتقي بسفن الحواتات في البحار البعيدة فيأخذ البحارة في التخاطب والاطمئنان على الحيتان وتحميل الرسائل للوطن وتبادل أخبار البر